الزرقاوي.. الجيل الثاني للقاعدة (2)

الزرقاوي لم يكن على وئام مع بن لادن.. وسيف العدل ساعده.. شارك في تورا بورا وخرج منها سالما

معظم جماعة الزرقاوي من السوريين في الشتات والامن السوري كشف عن خلاياه وابلغ الاردنيين عنها

فؤاد حسين*

■ الشخصية التي يتناولها هذا الكتاب فرضت أنماطا مختلفة من صنوف التصنيف، تارة أسلوب البحث العلمي المعتمد على القراءة والبحث والتمحيص والتلخيص، وقد أخذ هذا الأسلوب نصيبه في فصول هذا الكتاب، وتارة أخرى الاستماع إلى شهادات العشرات ممن عرفوا الزرقاوي أو رافقوه في مختلف محطات حياته، وهذا أخذ وقتا طويلا بين تدوين تلك الشهادات، ومن ثم تدقيقها، وتمحيصها، ومقارنة الشهادات بعضها ببعض، للوقوف على المعلومة الدقيقة لاستخدامها بعد التحقق من صحتها، وطرح المعلومة الضعيفة واستبعادها، ما لم نستطع التثبت منها، وتارة أخرى الطلب من أشخاص بعينهم أن يكتبوا بأنفسهم إجاباتهم على أسئلة طرحناها عليهم، لكن الشاق في هذا الجانب كان الوصول إلى هؤلاء الأشخاص ممن لهم بصمات واضحة، سواء في تشكيل فكر الزرقاوي أو تشكيل منهجه واستراتيجيته، وكانت هذه المرحلة الأصعب من الكتاب، إذ باتت إمكانية الاتصال مع هؤلاء صعبة للغاية، إن لم تكن شبه مستحيلة، بعد الحادي عشر من أيلول (سبتمبر)، فغالبيتهم إما في السجون أو مطاردون أو مختفون، لكن دون تدوين شهاداتهم، لن يكون للكتاب إضافة معتبرة، فآثرنا تأخير الكتاب شهورا عدة إلى أن وصلنا إلى مبتغانا، وضمنا الكتاب ثلاث شهادات تغطي مراحل تطور مسيرة الزرقاوي.

الشهادة الأولى كانت لأبي المنتصر بالله محمد، وهو الشخص الأول الذي بدأ الزرقاوي معه بناء التنظيم الأول الذي أسسه أبو مصعب عام 1993، وهو تنظيم التوحيد، الذي عُرف لاحقا باسم (بيعة الأمام)، مسجلا بالتواريخ والأسماء والأحداث كل ما تم حتى عام 1999. فآثرنا تلخيص هذه الشهادة دون التدخل في مضمونها، ذلك أن الكثير مما ذكره لم يعد سرا يحمل صفة الجدة، إن لم أقل أنه سبق أن نشر مضمونه بعموميته، لذلك أبقينا على المعلومات التي طرحت للمرة الأولى، وعلى الانطباع الشخصي لصاحب الشهادة وموقفه من تلك الأحداث التي دونها.

الشهادة الثانية كانت للأب الروحي للزرقاوي عصام البرقاوي (أبو محمد المقدسي) الذي التقاه في الباكستان عام 1989، واتفق معه هناك على تشكيل تنظيم ديني في الأردن، وبقي معه في السجن، بادئا معه كرفيق درب وصديق، ثم شيخه الذي ينظر لفكرة التنظيم ويضع أدبياتها، ثم كتابع له بعد أن أصبح الزرقاوي أميرا للمجموعة داخل السجن، ثم منتقدا له وناصحا عن بعد، هو في سجنه بالأردن والزرقاوي في العراق.

الشهادة الثالثة، وهي الأهم كانت للرجل الثالث في القاعدة محمد مكاوي (سيف العدل) الذي يلقي من خلال شهادته الضوء على القدوم الثاني للزرقاوي إلى أفغانستان عام 1999، وأسباب الخلاف بين الزرقاوي وبن لادن، وكيف تم إنشاء معسكر خاص للزرقاوي في هيرات، مبينا طبيعة العلاقة التي كانت قائمة في تلك الفترة بين قيادة القاعدة والزرقاوي، وصولا إلى ضربة الحادي عشر من ايلول (سبتمبر)، وأهداف القاعدة من وراء هذه الضربة، موضحا كم تحقق من تلك الأهداف، مرورا باحتلال أفغانستان والخروج إلى باكستان وإيران، كاشفا طبيعة الدور الذي لعبته طهران حينذاك، وبعد ذلك قرار إدخال الزرقاوي إلى العراق والتحضيرات التي سبقت ذلك.

وفي محاولة لاستشراف مستقبل القاعدة في العراق من خلال تطور تنظيم قاعدة الجهاد في بلاد الرافدين تتبع الكتاب محطات تطور عمل، وشخصية الزرقاوي، خلال السنوات الثلاث الأخيرة. معتمدين معلومات دقيقة تطلب الوصول إليها استقصاء دقيقا وحثيثا، لكل من كان على تماس مع الزرقاوي خلال تلك السنين.

وللوقوف على مستقبل الحرب المفتوحة بين القاعدة، وواشنطن التي تطلق على حربها تلك مصطلح محاربة الإرهاب الدولي، حاورنا العديد من منظري القاعدة سواء ممن ساهموا في صنع استراتيجياتها في وقت سابق أو من باتوا من صناع قراراتها لاحقا، واستمعنا إلى كل ما يجول بخاطرهم، لنرسم للقراء استراتيجية القاعدة حتى عام 2020، والوسائل التي أتبعوها، والخطط التي وضعوها للوصول إلى تحقيق هذه الاستراتيجية.

علاقته بوالدته

كان لوالدته الأثر الكبير في استكمال الضلع الأول (نشأته)، وهو الضلع الأساس في تشكيل شخصيته، التي أثرت كثيرا في تنشئته، فقد ربته تربية محافظة في ظل ظروف اقتصادية غير مريحة لأسرة كبيرة تضم ثلاثة أولاد وسبع بنات.

كان الزرقاوي في السجن، يترقب بشوق زيارات والدته اليه لحظة بلحظة، فلم يكن العالم المحيط به بالسجن من رفاق وامارة، كافيا لاشباع الجانب العاطفي من شخصيته، فكان اليوم المقرر لزيارة والدته اليه، يوما استثنائيا، اذ كان يلبس أفضل ما لديه لملاقاتها، وحين يسأله زملاؤه عن تأنقه غير المعتاد واهتمامه البالغ بهندامه، يقول: انها أمي.

هذه الأم كانت تحظى بمكانة كبيرة في ذاكرته ووجدانه، كتب اليها أرق وأعذب البطاقات التي كان يرسلها في المناسبات والأعياد الدينية، لكن جنوح مشاعره تجاهها لم يكن حائلا دون الالحاح عليها ضرورة الالتزام الصارم بالسلوك الديني القويم ـ من وجهة نظره. وشوقه الى ملاقاتها الذي لا حدود له، دون أن يتمكن من تحقيقه بسبب ظروف اعتقاله، كان يستعيض عنه بالتمني بملاقاتها بالجنة في الدار الآخرة.

«حبيبتي الغالية ان سألت عني فاني والحمد لله بخير ولا ينقصني سوى رؤية وجهك الطاهر ويعلم الله ما أحن لشيء في هذه الدنيا أكثر مما أحن اليك يا ست الحبايب ولو بقيت العمر عند قدميك ما أوفيتك شيئا من حقك».

ولم تكن رسائل الزرقاوي وبطاقاته الى والدته، تعكس مشاعره تجاهها فحسب، بل كانت تعكس أيضا قناعاته الدينية، فرغم السن المتقدمة التي بلغتها والدته، مع ذلك كان يذكرها بضرورة عدم مجالسة الرجال والسلام عليهم، حبا بها، لتدخل الجنة، ويلقاها هناك:

«فكم كنت أتمنى أن أكون عندك في رمضان لأدخل السرور على قلبك وأعوضك ما فات من سنين سجني ولكن قضاء الله نافذ لا محالة والحمد لله على نعمه الظاهرة والباطنة وهذا يا أمي دين الله غالي يحتاج الى بذل الغالي والرخيص فأصبري يا حنونة فان لم نجتمع في الدنيا فالملتقى عند الله الكريم الجواد الرحيم ولكن احرصي يا حنونتي أن تطيعي الله في كل شيء وأكثري من فعل الخيرات في رمضان واياك ومجالسة الرجال ومصافحتهم فهذا رجائي عندك لأنني يا أمي لا أحب لك الا طاعة الله والبعد عن سخطه».

لم يكتف الزرقاوي برسائله وبطاقاته التي كان يرسلها من سجنه الى والدته ونوديه، بما تتدفق به قريحته من أشعار وخواطر، بل كانت شدة الشوق والوجد اليهم تحيله فنانا يرسم من الكلمات لوحات فنية، تارة بالتفنن بالتخطيط، وتارة أخرى بالرسومات المعبرة عما يجول في خاطره، بما تدلل عن عمق ارتباطه الأسري بوالدته وبقية أفراد عائلته. وحين غادر الى الباكستان بعد خروجه من السجن أرسل وراء والدته وزوجته للحاق به هناك، بيد أن والدته مكثت عنده بعض الوقت وعادت الى الأردن.

الزرقاوي متزوج من سيدتين له من الأولى أربعة أطفال أكبرهم الطفلة آمنة وعمرها (14) سنة، روضة وعمرها (11) سنوات، محمد وهو الولد الذكر وعمره (9) سنوات، والصغير مصعب وعمره (7) سنوات.

الضلع الثالث لشخصية الزرقاوي له بعد تاريخي، فلا يمكن فهم شخصية الزرقاوي ومحاولة استشراف مستقبل تنظيمه والخطوات التي يمكن أن يقدم عليها ما لم ندرس شخصية نور الدين زنكي. الذي يستحوذ على اعجاب الزرقاوي بشكل كبير.

فأينما حل الزرقاوي أو ارتحل يبحث عن الكتب التي تتحدث عن نور الدين، وأفضل الهدايا التي كان يتلقاها ممن عرفوه كانت كتب التاريخ التي تفصل الحديث عن جهاد وفتوحات نور الدين زنكي ضد الصليبيين.

من هنا يمكننا الاجابة على السؤال المهم: لماذا اختار الزرقاوي دون قادة القاعدة العراق مستقرا له بعد احتلال الجيوش الأمريكية لأفغانستان؟ هل يريد أن ينطلق من الموصل لتحرير العراق وتوحيد بلاد الشام وشمال العراق مع مصر تمهيدا لتحرير بيت المقدس؟ وهل يمكننا أن نأخذ ببعض النظريات التي تذهب الى حد القول أن صناع التاريخ يتقمصون شخصية بطلهم ويسيرون على خطاه لاعادة كتابة التاريخ؟

من خلال قراءة سيرة نور الدين زنكي أمكننا فهم سبب اعتماد الزرقاوي في بداياته على عناصر من شمال سورية (حلب، حماة، اللاذقية)، ومن هنا يمكننا فهم اتخاذه شمال العراق ومنطقة الجزيرة على ضفاف الفرات قاعدة أولى له لمنازلة قوات الاحتلال الأمريكي في العراق.

أدبيات الزرقاوي السياسية في السجن

الكلمات العذبة، والرقة البالغة التي نلمسها في مراسلات الزرقاوي الى والدته ونوديه، كان النقيض لها في مرافعته التي قدمها أمام محكمة أمن الدولة في الأردن، أثناء النظر بالقضية المتهم بها (الانتساب الى جماعة بيعة الامام). هذه المرافعة التي جرى العرف أن تكون دفاعية تفند ما وُجه اليه من تهم، كانت لائحة اتهام ضد القضاة ونظام الحكم السياسي الذي يتبعون اليه، تهمتهم أنهم يحكمون بالقوانين والدساتير الوضعية، وليس بما تمليه الشريعة الاسلامية، وما أنزل به الله:

«أيها القاضي بغير ما أنزل الله:

اذا عرفت هذا، وظهر لك أن الكفر البواح والشرك الصراح اتخاذ غير الله مشرعا ـ سواء كان هذا المشرع عالما أو حاكما أو نائبا أو شيخ عشيرة ـ وعلمتم أن الله قد حكم على الشرك في كتابه، فقال: «ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء».

ثم علمتم أن المادة «26» من دستوركم الوضعي تنص على:

أ ـ السلطة التشريعية تناط بالملك وأعضاء مجلس الأمة.

ب ـ تمارس السلطة التشريعية وغيرها صلاحياتها ومهامها وفقا لمواد الدستور.

عرفتم أن كل من قبل بهذا الدين المحدث والكفر البواح المناقض لدين الله تعالى وتوحيده، أنه قد اتخذ هؤلاء المشرعين أربابا من دون الله تعالى، يشركهم مع الله في عبادته».

خرج الزرقاوي من السجن في شهر آذار (مارس) عام 1999 نتيجة عفو ملكي عام أصدره العاهل الأردني الملك عبد الله الثاني بمناسبة توليه الحكم، بعد وفاة والده الملك حسين، في محاولة لتبييض السجون، مزيحا عن كاهله ارث والده السياسي، من خصوم ومريدين، لكن يبدو أن الزرقاوي قد عُرض عليه خياران لا ثالث لهما، أما مغادرة الأردن ليريح ويستريح، واما العودة الى السجن ثانية. قرر الزرقاوي الذي كان تواقا للحرية، مغادرة الأردن بعد ستة أشهر من الافراج عنه، خلاف معلمه أبو محمد المقدسي الذي كان يعتبر دوره محصورا بالمجال الدعوي والتنظيري، في حين كان الزرقاوي يرى أنه خُلق للعمل الميداني.

الأفكار التي تشربها الزرقاوي خلال فترة الاعتقال، حملها معه حين غادر السجن.

محاولة السفر للشيشان

توجه الزرقاوي فور مغادرته الأردن الى باكستان، محطة مؤقتة، للسفر الى الشيشان التي كان يرى أنها اكثر حاجة من غيرها للمجاهدين العرب، خاصة وأن الساحة الأفغانية كانت حينذاك ملتهبة بمعارك داخلية طاحنة بين حلفاء الأمس. رغب الزرقاوي أن ينأى بنفسه عن تلك الصراعات الداخلية، لكن السلطات الباكستانية اعتقلته بسبب انتهاء مدة الاقامة الممنوحة له، قبل أن يكمل ترتيب اجراءات سفره الى الشيشان، وبعد اعتقال دام ثمانية أيام في مدينة بيشاور، قررت السلطات الباكستانية ابعاده، فلم يكن في تفكيره قط العودة الى الأردن، مما اضطره لاختيار أفغانستان مكرها.

رحبت القاعدة بعودة الزرقاوي اليها، بيد أن أبو مصعب لم يكن على توافق تام مع بن لادن، وهذا حال دون انخراطه مجددا في تنظيم القاعدة، فما كان من الزرقاوي الا الاعتذار عن مواصلة مشواره مع القاعدة. لكنه اتفق معها على التدريب في معسكراتها، لحين الاتفاق على ترتيبات جديدة.

محمد مكاوي المعروف باسم سيف العدل، وهو الرجل الثالث في تنظيم القاعدة، عرض على الزرقاوي مساعدته بكل ما يحتاج اليه، اذا ما قرر البدء بعمل جديد، بعد أن اتفق مع بن لادن على ضرورة استيعاب الحالات التي لا تتفق مع القاعدة بشكل كامل، مثل حالة الزرقاوي، كما سيأتي تفصيله لاحقا. لاقى هذا العرض هوى في نفس الزرقاوي الذي قرر بناء معسكر خاص به في مدينة هيرات الواقعة غرب أفغانستان على الحدود الايرانية، وبدأ مرحلة جديدة من مسيرته في أواخر عام 1999. حيث بدأ اتباعه الذين يعرفون باسم «جند الشام» في التوافد اليه في نهاية ذلك العام، الى معسكر هيرات، حيث تلقى دعما كاملا من تنظيم القاعدة وحركة طالبان.

استقلال الزرقاوي عن تنظيم القاعدة تكرس بشكل كامل قبل الحرب الأمريكية على أفغانستان فلم يكن راضيا تماما عن أسلوب عملها، حيث كان يأخذ عليها عدم قسوتها في ضرب أعدائها، وأن العمليات ينبغي أن تكون أكثر دموية وايلاما، فأي نذير يوحي أبو مصعب بقدومه لأعدائه. لكن هذا الخلاف لم يؤد الى قطع صلات الود مع قادة القاعدة.

كان الساعد الأيمن للزرقاوي في بناء معسكره الخاصة في هيرات، عبد الهادي دغلس وخالد العاروري (أبو القسام)، وكانا من رفاقه المخلصين في السجن وقبله، ولم يمكث العاروري طويلا في الاعتقال، بسبب عجز السلطات الأمنية في الأردن عن توفير الأدلة المادية اللازمة لادانته أمام المحاكم، وكان العاروري الشخص الوحيد الذي غادر الأردن برفقة الزرقاوي الى باكستان، استمر هذان الشخصان في اخلاصهما للزرقاوي أثناء تأسيس شبكته الخاصة، حيث عملا على استقطاب المتطوعين العرب الباحثين عن الجهاد في أفغانستان الى هذه الشبكة وخاصة الأردنيين منهم والفلسطينيين.

لم يكن التغيير في رحلة الزرقاوي الثانية الى أفغانستان مقتصرا على العامل الذاتي، المتعلق بتأسيس شبكته الخاصة فحسب، بل كان التغيير أيضا متعلقا بالعامل الموضوعي، فقد ذهب الى أفغانستان في المرة الأولى لمقاتلة السوفييت الذين يحتلون أرض المسلمين، لكن في المرة الثانية قصد أفغانستان، بعد أن حل الأمريكيون في موقع العداء والخصومة، محل السوفييت الذين اندثرت امبراطوريتهم، بسبب عوامل كثيرة، كان الغوص في الوحل الأفغاني من أهم أسبابها. لكن بعد الحادي عشر من ايلول (سبتمبر) الضربة الأكبر في تاريخ الصراع والتحول في المنطقة، والتي غيرت كل شيء، اصبح ثمة مفهوم جديد للصراع.

لقد طورت الولايات المتحدة استراتيجيتها من سياسة الاحتواء والردع الى سياسة الضربة الاستباقية، خاصة بعد انهيار الاتحاد السوفييتي وسيطرة المحافظين الجدد على البيت الأبيض. التنظيمات السلفية الجهادية وعلى رأسها القاعدة، هي الأخرى كانت قد حزمت أمرها بشكل أبكر من النقاشات التي كانت تدور في واشنطن، فقد انتهجت هذه التيارات وأعلنت وأظهرت بأنها سوف تعمد الى أسلوب الحرب الاستباقية، أي الحرب الهجومية، بشكل ظاهر قبل واشنطن بوقت طويل، فبدأت بتفجير سفارتي الولايات المتحدة في نيروبي ودار السلام، وأتبعت ذلك بمهاجمة المدمرة الأمريكية يو أس أس كول في اليمن، وتوجتها بهجمات الحادي عشر من ايلول (سبتمبر). فالسلفية الجهادية والادارة الأمريكية كلاهما يتبنى الاستراتيجية ذاتها وبالتالي كلاهما يشترك في نفس النقطة.

وقع الاجتياح الأمريكي لأفغانستان أواخر عام ألفين وواحد، بهدف القضاء على حكم طالبان عامة بزعامة الملا عمر، وتنظيم القاعدة خاصة، بقيادة أسامة بن لادن وأيمن الظواهري، ولم يلتفت أحد ـ حينذاك ـ الى الزرقاوي كقائد خطر يشكل تهديداً. في تشرين الثاني (نوفمبر) 2001 غادر الزرقاوي ومجموعته معسكر هيرات، بعد حصارهم من قبل الأفغان الموالين لقوات التحالف، القادمة من مناطق الحدود المتاخمة لايران. توجه الزرقاوي الى قندهار على رأس قافلة سيارة ضخمة، تحمل عائلات مقاتليه من نساء وأطفال، علاوة على الأفغان ممن كانوا ضمن شبكته، كانت الرحلة محفوفة بالمخاطر والصعاب في ظل اشتداد القصف الجوي، وتقدم المعارضة الأفغانية المتحالفة مع أمريكا، مما زاد صعوبات الحركة والانتقال حيث استغرقت الرحلة ثلاثة أيام.

شارك الزرقاوي ومجموعته الى جانب طالبان والقاعدة في المعارك العنيفة التي دارت في قندهار وتورا بورا، حيث أصيب الزرقاوي في معارك قندهار بكسر في أحد أضلاعه اليسرى، جراء سقوط أجزاء من بناء كان بداخله، تعرض لقصف جوي، ولم يصب الزرقاوي في رجله ولم يفقدها، خلاف ما يشاع على نطاق واسع.

رغم شدة المعارك في تورا بورا، استطاع الزرقاوي الانسحاب مع مجموعته سالما من القصف الأمريكي والطوق الذي فرض على المنطقة، ويرى اتباعه في ذلك دلالة على حنكته العسكرية.

مغادرة أفغانستان كان الخيار الوحيد المتاح أمام الزرقاوي بعد سقوط قندهار وقصف تورا بورا، اذ بات واضحا أن عهد طالبان قد انتهى. عمل الزرقاوي قبل مغادرة أفغانستان، على تأمين سلامة زوجات وأبناء رفاقه، فتأكد من اخراجهم الى الباكستان قبل مغادرتهم النهائية لأفغانستان.

في طهران

لم يكن أمام الزرقاوي خيارات متعددة، فباكستان كان اعتقل بها، وتم ابعاده منها بسبب مخالفته قوانين الاقامة، علاوة على أن تحالفها مع الولايات المتحدة في الحرب على أفغانستان، يجعلها مكانا غير آمن، والأردن لا يمكنه العودة اليه بسبب حكم غيابي بالاعدام كان صدر بحقه، فقرر التوجه الى ايران.

وضع الزرقاوي الترتيبات المناسبة لتسهيل نقل أفراد شبكته من أفغانستان الى ايران، عبر باكستان، فعين عبد الهادي دغلس قائدا لمجموعته، قبل توجهه منفردا الى ايران، حيث رتب اقامة قاعدة لوجستية في مدينة زاهدان الايرانية الواقعة قرب الحدود مع باكستان، بمساعدة ايرانيين من السنة، كان على علاقة طيبة معهم حين كان له معسكر في هيرات، ثم أقام مركزا آخر في طهران، بمزرعة يملكها القائد الأفغاني حكمت يار، اتخذ منها مقرا للقيادة، وهناك عقد الزرقاوي مجلس شورى لقادة شبكته ابلغهم فيه أنه قرر التوجه الى العراق، لاعتقاده أنها ستكون ساحة المعركة المقبلة مع الأمريكيين. قرار الزرقاوي التوجه الى العراق، كان اتخذه بسرية مطلقة، فلم يكن أحد من أفراد مجموعته يعرفون وجهتهم حين غادروا الى باكستان، ومن ثم الى ايران.

وزع الزرقاوي أفراد شبكته على عدد من الفنادق المنتشرة في طهران، خاصة من يملكون وثائق سفر رسمية، ووضع في بيوت خاصة البعض الأخر من أعضاء شبكته، ممن لا يملكون وثائق اثبات الشخصية.

عمل الزرقاوي في طهران بداية على نقل عائلات أفراد شبكته جوا الى تركيا، تمهيدا لنقلهم لاحقا الى العراق، وطلب ممن يملكون وثائقهم الرسمية من مقاتليه التوجه جوا الى تركيا، ومن هناك الى العراق، في حين قام بترتيب نقل من لا يملكون وثائق سفر رسمية الى شمال العراق بشكل غير رسمي، وفي أثناء تنفيذ هذه الخطة، داهمت المخابرات الايرانية عددا من الفنادق التي يقيم بها أفراد مجموعته، وذلك عشية استعدادهم للسفر الى تركيا، حيث تم اعتقال قرابة ثلاثة وعشرين شخصا، وفي المقدمة منهم ساعده الأيمن خالد العاروري، مما حمل الزرقاوي الى سرعة التوجه مع من تبقى من أفراد شبكته الى شمال العراق. بعد أن اتفق الزرقاوي مع العراقي الكردي (وريا صالح) الملقب أبو عبد الله الشافعي، من قادة تنظيم أنصار الاسلام، على تولي التدريب والدعم العسكري لشبكته لحين استكمال بنائها والاعتماد على نفسها.

كردستان

أسس الزرقاوي في كردستان العراق قاعدتين لوجستيتين: الأولى في دارغايش خان، الثانية كانت في سرغات. نصب الفلسطيني عبد الهادي دغلس رفيق طفولته وصباه في مدينة الزرقاء، أميرا عليها، وكلفه مسؤولية تنسيق العلاقة بين شبكته وجماعة أنصار الاسلام الكردية، وقد قتل دغلس مع بداية الهجوم الأمريكي على العراق في شهر آذار (مارس) عام 2003. وقد رثاه الزرقاوي بنفسه في أول خطبة ألقاها من العراق، وكانت باسم «الحق بالقافلة»:

«فكم من الأحباب يا رب اصطفيتهم واتخذتهم من بيننا وحرمتنا من ذلك بذنوبنا اللهم فلا تحرمنا أجرهم، ولا تفتنا بعدهم وألحقنا بهم.

وان كنت أنسى.. فلا أنسى في هذا المقام اخواننا الشهداء ـ رحمهم الله ـ الذين كانوا معنا في السراء والضراء وصبروا معنا على لأواء الطريق وعلى رأسهم الأخ الحبيب الغالي الشهيد الحي ـ نحسبه كذلك والله حسيبه ـ «أبو عبيدة عبد الهادي دغلس» فوالله ما رزئت بمصيبة ـ بعد أن هداني الله ـ بمثل فقد هذا الأخ، هذا الأخ الذي كنت استصغر نفسي أمامه لفرط شجاعته واقدامه وصبره وحسن خلقه.

فعلى مثل عبد الهادي فلتبك العيون.

فعلى مثل عبد الهادي فلتبكَ العيون.

فكلما تذكرته تذكرت حديثَ النبي عليه الصلاة والسلام الذي رواه أحمد وابن حيان، عن ابن مسعود أنه قال:

«عجب ربنا من رجلين... وذكر منهما رجل غزا في سبيل الله فانهزم أصحابه وعلم ما عليه في الانهزام، وماله في الرجوع، فرجع حتى يهرق دمه، فيقول الله لملائكته: انظروا الى عبدي رجع رجاء فيما عندي وشفقة مما عندي حتى يهرق دمه».

فيوم أن اضطر المجاهدون الى أن يخلوا مواقعهم نتيجة القصف الشديد والمتواصل أبى أن يرجع، وتبايع على الموت هو وثلة من اخوانه وانغمسوا في العدو نسأل الله أن يتقبلهم.

ماتوا وغُيِّب في التراب شخوصهم

فالنسر مسك والعظام رميم

فوالله لقد كان جبلاً من الجبال، وأسداً من الأسود، وعابداً من العباد، وزاهداً من الزهاد، ترى الصلاح في وجهه، مسعّر حرب لو كان معه رجال، لا تأخذه في الله لومة لائم، شديداً على أعداء الله، رحيماً وبراً باخوانه.

رحمك الله يا عبد الهادي رحمة واسعة، لقد كنت ـ والله ـ الأخ الحبيب والصديق الشفيق، وكنت السمع والبصر.

فوالله ان مكانك مازال شاغراً.. لا يستطيع أن يملأه أحد، ويفقدك فقدت عضواً من أعضائي.

وان كنت أنسى فلن أنس ذلك اليوم الذي قلت لي فيه: اني لأدعو لك أكثر مما أدعو لوالدي.

فأي خسارة بعد هذه الخسارة، وأي رزية بعد هذه الرزية، فقدتك في وقت كنت أحوج ما أكون اليك فيه.

نسأل الله عز وجل أن يرفعك في عليين، وأن يلحقنا بك غير مفتونين شهداء صالحين مع النبيين والصديقين وحَسُنَ أولئك رفيقا، أنت واخوانك الذين لم أذكرهم لضيق المقام.

ليُسعد عهدكم عهد السرور فما

كنتم لأرواحنا الا رياحينَ»

بعد أسر خالد العاروري في ايران، ومقتل عبد الهادي دغلس في شمال العراق، اتخذ الزرقاوي من منطقة الجزيرة غرب الأنبار مقرا رئيسا لتنظيمه. وأوكل الى طبيب الأسنان السوري سليمان خالد درويش المعروف بلقب أبو الغادية، مهام الاثنين،كما أوكل اليه مسؤولية تدريب اتباعه على صناعة المتفجرات، بعد أن استقرت زوجته الثانية ـ وهي فلسطينية ـ وابنهما خالد في الأردن، حتى أصبح أبو الغادية من أهم عناصر شبكة الزرقاوي التي قررت الانتقام من أمريكا.

اعتمد الزرقاوي في بناء شبكته على أسس تختلف عن تلك التي اعتمد عليها بن لادن والظواهري، اللذان ركزا على متطوعين من الجزيرة العربية ومصر بشكل كبير، وعلى تمويل يعتمد على أموال متدفقة من الجزيرة العربية، في حين اعتمد الزرقاوي في بناء شبكته على أهل بلاد الشام (الأردن، فلسطين وسورية)، ولاحقا على العراقيين وبقية العرب، حتى بات أعضاؤها يسمون بجند الشام، وقد استثمر الزرقاوي شتات السوريين الموزعين في دول مختلفة من العالم، بصفتهم لاجئين سياسيين، جراء البطش الذي تعرضت له جماعة الاخوان المسلمين وبقية الجماعات الاسلامية في المدن السورية، مثل حلب وحماة، أوائل الثمانينيات من القرن الماضي، وباتوا على ما يبدو يميلون الى الأفكار الأكثر تشددا وعنفا، بعد أن كانوا حركة دعوية، كرد فعل على العنف الذي مورس ضدهم وفق ما هو معتقد، فالتحق قسم غير قليل من هؤلاء وأبنائهم بالمجاهدين في أفغانستان، محملين بمبالغ طائلة من الأموال، جمعوها أثناء عملهم في أوروبا والأمريكيتين وبقية بلدان العالم، فتلقفهم الزرقاوي واستقطبهم، من خلال مساعده السوري أبو الغادية، بعد أن وضع استراتيجية خاصة لادارة المعركة في العراق.

العارفون بهيكلية شبكة الزرقاوي، يشكون في جدوى تخصيص جوائز مالية لاعتقال أميرها أبو مصعب، لأنه عمد وهو في هيرات الى بناء مجتمع اسلامي مصغر يحتضن شبكته، لحمايتها من الاختراق، فعلى سبيل المثال فقد أقدم على الزواج من ابنة الشيخ ياسين الذي قاد سيارة اسعاف مفخخة، اغتال فيها الزعيم الشيعي باقر الحكيم، وزوج شقيقته الى خالد العاروري، وتزوج أبو الغادية من ابنة أبي محمد أحد مقاتلي الشبكة. وهكذا أصبحت علاقة المصاهرة تربط معظم القادة الرئيسيين بشبكة الزرقاوي مع بعضهم البعض.

رغم تلك الأحداث الجسام التي مر بها الزرقاوي، الا أنه بقي شخصا بعيدا عن الأضواء، الى أن سلط الأردن الكشافات الساطعة عليه، حين اتهمه بالوقوف وراء اغتيال الدبلوماسي الأمريكي لورنس فولي، الذي وقع بالعاصمة الأردنية عمان، في الثامن والعشرين من شهر تشرين الأول (أكتوبر) عام 2002، وقد تبنى عملية الاغتيال آنذاك، تنظيم أطلق على نفسه اسم شرفاء الأردن، في بيان حمل رقم اثنين، وكان البيان رقم واحد، قد صدر عن هذا التنظيم في السادس من آب (أغسطس) عام ألفين وواحد، حين تبنى مسؤولية اغتيال اسحاق سنير، الذي وصفه البيان بأنه عميل للموساد الاسرائيلي، كان يسكن في العاصمة الأردنية بجوار فولي حينذاك.

لم يحظ الزرقاوي أيضاً باهتمام أحد قبل عامين من اغتيال فولي، حين أصدرت محكمة أمن الدولة في الأردن، حكما غيابيا بحقه مع أحد عشر شخصا أخرين، بالسجن خمسة عشر عاما، في أيلول (سبتمبر) عام 2000، بتهمة التخطيط لهجمات على مواقع سياحية ودينية في الأردن، في مطلع الألفية الثالثة، تنفيذا لتعليمات تنظيم القاعدة وفق قرار الحكم.

اتهام الزرقاوي بعلاقته في اغتيال الدبلوماسي الأمريكي فولي، كان له هذه المرة وقعه الخاص، فالقتيل أمريكي، ورئيس الحكومة الأردنية حينذاك علي أبو الراغب، أضفى على هذه الحادثة بعدا دوليا، ليس لأن القتيل دبلوماسي أمريكي فحسب، بل لأن أبو الراغب، أطلق أول اشارة تربط العراق بالقاعدة، بترجيحه وجود الزرقاوي في شمال العراق، وأنه على صلة بتنظيم أنصار الاسلام.

لكن اللافت في مجريات المحاكمة، أن الدليل الذي قدمه الادعاء العام لاثبات علاقة الزرقاوي بالمجموعة المتهمة بتنفيذ العملية، اتصالات هاتفية قال أنها جرت بينهم عبر أحد مساعديه يدعى أبو الغادية، ودخول الزرقاوي الأردن في شهر أيلول (سبتمبر) من العام ذاته، أي قبل شهر واحد من الاغتيال، والتقائه بالمتهمين وفق لائحة الاتهام. فكيف دخل الزرقاوي للأردن وخرج منه وهو محكوم غيابيا بالسجن خمسة عشر عاما، دون أن تدري السلطات الأردنية؟!

اهتمت الوكالات الأمنية الأمريكية بالتحقيقات الخاصة باغتيال فولي، حيث قامت الـ(F.B.I) بجمع الأدلة التي تدين مشاركة الزرقاوي بعملية الاغتيال، رغم أن هذه المشاركة الأمريكية مخالفة للقوانين الأردنية، مما دفع محامي الدفاع الى تسجيل اعتراضاته على نتيجة التحقيقات المبنية على تلك المشاركة.

اهتمام الادارة الأمريكية بقضية اغتيال فولي، والسعي لتأكيد ربطها بالزرقاوي، تزامن مع سعي الولايات المتحدة الى تحشيد دول العالم والرأي العام العالمي، استعدادا لاجتياح العراق، بدعوى امتلاكه لأسلحة الدمار الشامل، ودعمه للارهاب العالمي.

في السادس من نيسان (ابريل) عام 2004، أصدرت محكمة أمن الدولة في الأردن، الأحكام بحق المتهمين باغتيال لورانس فولي، بمن فيهم أبو مصعب الزرقاوي.

بعد أسبوعين من اصدار هذا الحكم باعدام الزرقاوي، أعلنت السلطات الأردنية، أنها أحبطت مخططا أعده الزرقاوي للقيام بهجوم قالت أنه كيماوي، كان سيستهدف مقر المخابرات العامة، والسفارة الأمريكية، ومقر رئاسة الوزراء، وكان سيؤدي ـ وفق البيان الرسمي الحكومي ـ الى مقتل واصابة قرابة سبعين ألف شخص. قائد المجموعة المكلفة بهذا الهجوم عزمي الجيوسي، ألقت قوى الأمن الأردنية القبض عليه، مع عدد من أفراد مجموعته، حين داهمت منزله في أطراف مدينة اربد شمال الأردن، واعتقلت بقية أفراد المجموعة، وطاردت آخرين وحاصرتهم في منزل شرق العاصمة عمان، فقتلت أربعة منهم قيل أنهم رفضوا الاستسلام، واعتقلت البقية، نشرت السلطات الأردنية اعترافات منسوبة اليهم، قالوا فيها أن الزرقاوي خطط لهذه العملية وموّلها، ودرب عناصرها على صنع المتفجرات الكيماوية.

هذا العمل العسكري، كان يدار بسرية مطلقة، فقد كان الجيوسي قد وصل الى الأردن قبل ستة أشهر من اعتقاله، الا أن اكتشاف أجهزة الأمن السورية أن مجموعة الزرقاوي تتخذ من سورية قاعدة لوجستية لعمل يعد له في الأردن، وابلاغ الأردن بالتفاصيل، أسهم في احباط الخطة. وأفقد الزرقاوي قاعدة لوجستية مهمة له في سورية.

لكن بعد تسعة أيام من نشر السلطات الأردنية لهذه الاعترافات كانت المفاجأة، حيث أصدر تنظيم (شرفاء الأردن) الذي كان تبنى المسؤولية عن اغتيال فولي في حينه، بيانه الثالث يجدد فيه تبنيه لعملية الاغتيال، وأرفق مع البيان الذي أرسله الى محامي الدفاع عن المتهمين بالاغتيال، مظروفي طلقتين للمسدس الذي استخدم بعمليتي اغتيال فولي، ومن قبله الاسرائيلي، نافيا أن يكون للمحكوم عليهم علاقة بهذه القضية.

تهمة امتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل أُسندت لفتشي الأمم المتحدة، لكنهم لم يعطوا الادارة الأمريكية ما سعت اليه، من تأكيدات امتلاك العراق لها، كما أن تصريحات كولن باول وزير الخارجية الأمريكية في الرابع من نيسان (ابريل) عام 2004، من أن الأدلة التي قدمها في كلمته بمجلس الأمن في الرابع من شباط (فبراير) عام 2003، لم تكن مؤكدة ليعتد بها، وأسهم على ما يبدو في اغلاق هذا الملف، فواصلت واشنطن التركيز على ما بدأته في مسألة علاقة العراق بالارهاب العالمي، وتحديدا مع تنظيم القاعدة، وقد تكون وجدت في الزرقاوي الشخص المناسب، لتتهمه بصلة الوصل بين نظام حكم صدام حسين العلماني، وتنظيم القاعدة الأصولي، بعد أن قالت أن الزرقاوي تلقى العلاج في أحد مستشفيات العاصمة العراقية بغداد.

* كاتب وصحافي من الاردن

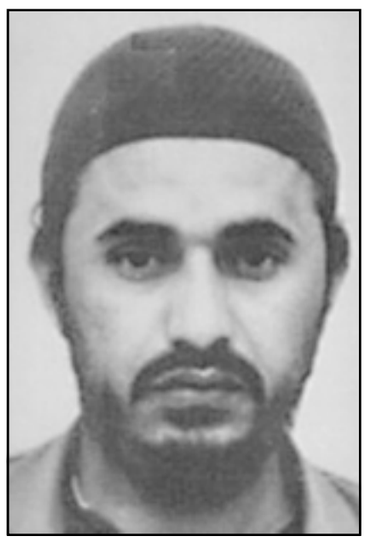

ابو مصعب الزرقاوي

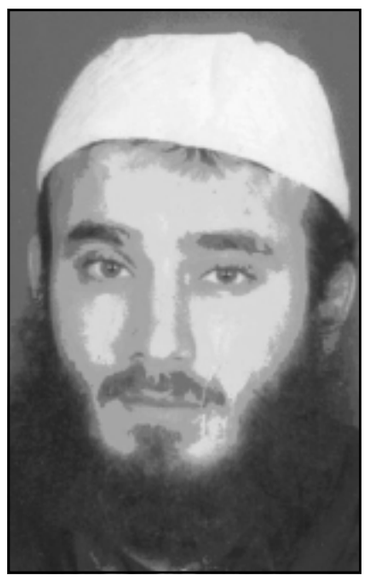

عبد الهادي دغلس

خ